Manufacturing Truth: between Media Elites, Think Tanks

■ Mrs. Soukaina Hasan[1]

Abstract

Nowadays, truth is no longer an objective entity; rather, it is the product of a process carried out by a network of institutions, most notably research centers and media elites. This research paper aimed at distinguish between controlled knowledge and free knowledge, and to analyze the "complementary" relationship between these institutions, to formulate the "official truth" and establish it as an indisputable reality through the use of the language of science and numbers, and with the help of persuasion strategies and tools.

Hence, it has become difficult to talk about the neutrality and objectivity of the media, which determines what should be published and what should be ignored, and even how it should be published, according to mechanisms of deletion, amplification, marginalization, and selection, in the context of achieving the greatest possible conquest of minds and ideas.

Government interests required controlling media elites and creating complete harmony between their goals and the outcomes provided by the media, even if this meant resorting to distorting facts. During the aggression on Gaza, the false "official truth" clearly emerged through close cooperation between governments, Western and Arab media elites, and research centers affiliated with the interests of dominant states.

In conclusion, the research sought to present a practical model, and there are many examples in this context, not only at the political level, but also at the economic, cultural, and social levels.

Keywords:

Media Elites, Think Tanks, Official Truth, Tools of Persuasion, Controlled Knowledge, Free Knowledge, Shaping Consciousness.

1 -Researcher and teacher at Al-Mustafa (PBUH) International University - Sayyida Zahra (PBUH) Seminary - Lebanon.

صِناعةُ الحقيقةِ: بينَ النخبِ الإعلاميّة ومراكز الدِّراسات والتفكير

■ سكينة حسن[1]

ملخّص

لم تعد «الحقيقة» اليوم كائنًا موضوعيًّا، بل هي نتاج عمليّةٍ تقوم بها شبكةٌ من المؤسّسات، أبرزهـا مراكـز الأبحاث والنخب الإعلاميّة. وقـد هدفت هذه الورقة البحثيّـة إلى التمييز بين المعرفـة المسـلّطة والمعرفة الحرّة، وإلى تحليـل العلاقة «التكامليّة» بين هذه المؤسّسـات، لصياغة «الحقيقة الرسـميّة» وتكريسـها واقعًـا لا جدال فيه، من خلال اسـتخدام لغة العلم، والأرقام، وبمسـاعدة استراتيجيّات الإقناع وأدواته. ومن هنا، أصبح من الصعب الحديث عن حياد وسـائل الإعلام وموضوعيّتها، وهي التي بيدهـا تحديد ما يجب أن يُنشر، وما يجب أن يُهمل، بل كيف يجب أن يُنشر وفق آليّات الحذف، والتضخيم، والتهميش، والانتقاء في سياق تحقيق أكبر قدرٍ من غزو العقول والأفكار. فاقتضت مصالح الحكومات السيطرة على النخب الإعلاميّة، وخلقَ التناسـق التامّ بين ما يسـعون إليه من أهداف، وما تقدّمه الوسائل الإعلاميّة من مخرجات، حتّى ولو من خلال اللجوء إلى تزييف الحقائق. ففي العدوان على غزّة، برزت بوضوح "الحقيقة الرسميّة" المزيّفة من خلال تعاونٍ وثيقٍ بين الحكومات والنخب الإعلاميّة الغربيّة والعربيّة، ومراكز الأبحاث المرتبطة بالمصالح المرتبطة بالدول المهيمنة. وفي الختام، سـعت هذه الوريقات إلى تقديم نموذجٍ عمليّ، وما أكثر النماذج في هذا السـياق ليس فقط على المستوى السياسيّ، بل الاقتصاديّ والثقافيّ والاجتماعيّ.

الكلمات المفتاحية: النخـب الإعلاميّـة، مراكز الأبحـاث والتفكير، الحقيقة الرسـميّة، أدوات الإقناع، المعرفة المسلّطة، المعرفة الحرّة، تشكيل الوعي.

---

١ - باحثة وأستاذة في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة- حوزة السيّدة الزهراء عليها السلام.

مقدّمة

حينــما أصبحث أحداث العالم أكثر تعقيدًا، وأزماته أكثر تشــعّبًا، ومعارفــه أكثر تدفّقًا، تزايد الاعتماد على وســائل الإعلام ومراكز الأبحــاث، لتحصيل القراءة الرصينــة والمتخصّصة التي تواكب الوتيرة المتســارعة للعالم الجديد، وقد تزايدت بالتبع الأســئلة عــن طبيعة المعرفة التي تقدّمها هذه المؤسّسات، ومدى حياديّتها في ظلّ تكاثر الأفكار وتباين الآراء.

وقد باتت الحقيقة اليوم ضرورةً مرجعيّةً للحكم على الأحداث، ولكن تشــير الأدلّة والقرائن إلى أنّ الحقيقة لم تعد تُكتشف، بل أصبحت نتاجًا مركّبًا لعمليّةٍ تتداخل فيها المصالح السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وتُدار من قِبَل النخب الفكريّة والإعلاميّة، وتظهر تحت عنوانٍ يرتدي قناع العلم والموضوعيّة، وتُســتخدم باعتبارها أداةً للســيطرة وضبط الوعي العام. وفي هذا السياق، تبرز مراكز الأبحاث، التــي تتولّى مَهمّة إنتاج المعرفة وتغذية الإعلام بها، في إطار مَنح قناعٍ من الشرعيّة والمصداقيّة، يخفي التحيّز الأيديولوجيّ.

تهدف هذه الورقة البحثيّة إلى تحليل العلاقة بين النخب الإعلاميّة ومراكز الدراسات والتفكير في إطار صناعة الحقيقة، ودراســة آليّات اســتخدام الإحصاءات والتحليلات، وتقنيّات الإقناع الإعلاميّ لإعادة تشكيل الواقع والسيطرة على الوعي.

كما تســعى إلى المقارنة بين مفهوم المعرفة الحرّة التي تمكّن صاحبها من التحرّر، والمعرفة المســلّطة التي تُستخدم باعتبارها أداة هيمنةٍ فكريّة، وتدعم الورقة تحليل نموذجٍ حيٍّ من الواقع المعاصر، يبيّن كيف يجري تشكيل الرأي العام تجاه القضايا الكبرى.

أوّلًا: صناعة الحقيقة بين المعرفة الحرّة والمعرفة المسلّطة

يرى الفيلسوف الماركسيّ (أنطونيو غرامشي- Antonio Gramsci) أنّه توجد وسيلتان لفرض السيطرة على مجتمعٍ ما؛ الوسيلة الأولى هي الوسيلة الخشنة التي تُستخدم فيها القوّة، لكنّها غالبًا ما تفشل في توليد سيطرةٍ فعليّةٍ مرغوبةٍ من قِبَل المجتمع. في حين تكون الثانية هي الوسيلة الناعمة القائمة على أساليب الإقناع والترغيب من خلال الثقافة والتعليم والدعم الاقتصاديّ وتوفير الخدمة الاجتماعيّة، هي الأنجع في كسب سيطرةٍ فعليّةٍ مستمرّةٍ على المجتمع[1].

من هنا، بات العالم الحديث والمعاصر يتحدّث عمّا يُسمّى "الحقيقة الرسميّة"، وهي تلك النسخة من الوقائع التي تنتجها النخب الحاكمة والمؤسّسات الإعلاميّة، وتقدّمها للجمهور على أنّها الحقيقة الموضوعيّة والموثوقة؛ ولكن هل تحكي هذه الحقيقة الواقع كما هو؟ والجواب ببساطة هو أنّ هذه الحقيقة لا تعكس الواقع، بقدر ما تضعه في قالبٍ ضيّقٍ يناسب قياس منتجيها وأيديولوجيّاتهم- وهذا ما يجعل من المعرفة إمّا حرّةً نابعةً من بحثٍ نقديٍّ مستقلّ، أو مسلّطةً مفروضةً عبر آليّات السيطرة المؤسّسيّة.

١- المعرفة الحرّة

المعرفة الحرّة هي التي تنتجها الحركات العلميّة والأكاديميّة والمجتمعات الحرّة، وفق عمليّاتٍ نقديّةٍ شفّافةٍ ومستقلّة، كالأبحاث الميدانيّة والدراسات الحياديّة، وتهدف إلى تقديم الحقيقة كما هي، لتوسيع آفاق الفهم وتعزيز وعي الأفراد والمجتمعات، وتتميّز بالموضوعيّة، والانفتاح على الحوار، وتسعى إلى تحدّي هيمنة الخطابات الزائفة؛ فـ«التعليم المحرّر لا يمكن أن يكون منفصلاً عن الواقع، ولا عن التاريخ الذي يعيشه الناس، بل هو تجربةٌ نقديّةٌ تبدأ من وعي الإنسان بواقعيّته، وتُبنى من خلال تجربته في هذا العالم»[2].

هذه المعرفة التي ينتجها الأفراد والمجتمعات، ووسائل الإعلام المستقلّة، والمفكّرون والباحثون النقديّون، وحركات المقاومة، هي لأجل التحرّر من الهيمنة، ويؤكّد (نعوم تشومسكي-

1 - Antonio Gramsci, Prison Notebooks, Vol. I, p. 276.

٢ - باولو فريري: تعليم المقهورين، ص٧٥.

Noam Chomsky) في هذا المجال: «في الديمقراطيّة العاملة، يكون دور المواطن هو التشكيك في السلطة، خصوصًا عندما تدّعي أنّها تقول الحقيقة»[1].

وباختصار، المعرفة الحرّة هي التي تركّز على كشف الواقع ونقده، وهي التي تشجّع على الشكّ المنهجيّ والتحقيق، وتُستخدم بوصفها أداةً للتحرّر.

٢ - المعرفة المسلّطة

تشكّل المعرفة المسلّطة شبكةٌ مترابطةٌ من المؤسّسات والنخب، توفّر سرديّةً إعلاميّةً، تبرّر سياسات القمع باسم الحياد والدقّة؛ لأنّ «ادّعاء الحياد والخبرة التقنيّة، يسمح للمؤسّسات الفكريّة بتقديم توصياتها على أنّها مبنيّةٌ علميًّا، حتّى عندما تكون أيديولوجيّة بعمق»[2].

فالمعرفة المسلّطة، هي التي تنتجها النخب المسيطرة على مؤسّسات البحث والإعلام، من أجل ضبط الوعي العام وتوجيهه بما يخدم مصالحها، عبر تقديمها بصفتها حقيقةً نهائيّةً لا تقبل النقاش. وهي تتميّز بالتوجيه المسبق، وتُستخدم لإعادة إنتاج الهيمنة.

فالجامعات، والمؤسّسات الأكاديميّة، ومراكز الأبحاث، قد تنتج أشكالاً من المعرفة الأيديولوجيّة عندما تخضع لهيمنة الدولة أو الشركات الكبرى أو المؤسّسات التمويليّة؛ إذ إنّ «المؤسّسات الفكريّة ليست ناقلاتٍ محايدةً للمعرفة؛ لأنّ السياسيّين يستخدمون الخبرة لتشكيل النقاش العام والنتائج السياسيّة، بما يعكس التزاماتهم الأيديولوجيّة والماليّة»[3].

فهذه المعرفة تعتمد على هيمنة مصادرها، وتركّز على تبريرها وشرعنتها، وهي التي تُستخدم باعتبارها أداةً لضبط الوعي وفق خلفيّاتٍ أيديولوجيّة.

٣ - ضبط الوعي الجماهيريّ

في حين تمكّن المعرفة الحرّة متلقّيها من فهم آليّات السيطرة، وتعزّز من الوعي النقديّ، من

---

١ - نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام- الإنجازات المذهلة للدعاية، ص٧.

2 - Andrew Rich, Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise, p.78.

3 - Andrew Rich, Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise, p.2.

خلال ما تغذّيه في العقول بأسئلةٍ عن ما تقدّمه وسائل الإعلام ومراكز الدراسات.

تلعب المعرفة المسلّطة دورًا رئيسًا في تأطير الوعي الجماهيريّ من خلال انتقاء موضوعات الأبحاث والدراسات، وتوجيه التحليلات والمخرجات، وتكرارها في خطاب وسائل الإعلام للتأثير سلبًا في قدرة المتلقّين على بناء الوعي الحرّ القادر على المقاومة.

ومن هنا، يرى (ميشال فوكو-Michel Foucault) أنّ "السلطة والمعرفة تقترن كلٌّ منهما بالأخرى بشكلٍ مباشر... لا توجد علاقة سلطةٍ من دون بناءٍ معرفيٍّ مصاحب، ولا توجد معرفةٌ لا تستدعي في الوقت نفسه علاقات سلطة"[1].

ومن أجل إنتاج هذه المعرفة جرى إنشاء مراكز أبحاث وفكر متخصّصة، التي غالبًا ما يجري تمويلها من قِبل النخب السياسيّة والاقتصاديّة... كما يجري تبنّي تحليلاتها من قِبل وسائل الإعلام؛ لأنّها تمنح خطابها غلافًا من العقلانيّة. وبذلك، تتقاطع جهود جهاتٍ ثلاث في إنتاج الحقيقة الرسميّة: هي السلطة، والإعلام، ومراكز الأبحاث.

ثانيًا: وسائل الإعلام- إعادة هيكلة الواقع وتأطير الرأي العام

احتلّت وسائل الإعلام المختلفة في العالم الحديث مكانةً متقدّمةً من خلال برامجها التي بإمكانها التأثير في ثقافة المجتمعات، هذه المكانة جعلت من هذه الوسائل محورًا رئيسًا في سياسة الحكومات التي أنشأت وزاراتٍ للإعلام، وخصّصت دوائر تُعنى بكلّ ما يخصّ بنوك المعلومات هذه؛ وذلك بهدف تطوير المجتمعات ثقافيًّا، واجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا... ولم تتوقّف هذه الوسائل عند حدود دولها، بل استطاعت التكنولوجيا المُعَولَمة أن تلغي الحدود بين الدول، وتربط أقصى الشرق بأقصى الغرب... هذه المكانة ذاتها هي التي جعلت من وسائل الإعلام محطّ اهتمام المؤسّسات المختلفة، سواءٌ الاجتماعيّة أم السياسيّة أم الاقتصاديّة؛ لما لديها من قدرةٍ على إيصال صوتها وخدمة أهدافها. وقد أصبح معلومًا اليوم، أنّ الدولة ذات الإعلام القويّ هي دولةٌ قويّة، وأنّ للإعلام نفسه نفوذًا يتفوّق به على سائر أركان الدولة، ولعلّ

1 - Michel Foucault, The Archaeology of Knowledge, p. 27.

السـبب في هذه السـلطة التي تتعاظـم يومًا بعد يوم هو وظيفـة التوجيه التـي تضطلع بها هذه الوسائل، والقدرة على تكوين المواقف والاتّجاهات[١].

إنّ الوسـيلة الإعلاميّة التي برزت منذ عقود عدّة، وفرضت نفسـها في مختلف أنماط الحياة، لم تعد اليوم مجرّد وسـيلةٍ للتسـلية ونقـل الأخبار، بل تحوّلـت إلى أداةٍ لغـرس القِيَم، وتغيير المعتقدات، وتوجيه السـلوك؛ وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى أنّ لهذه المؤسّسـات الإعلاميّة فلسفتها، وأيديولوجيّتها، وأفكارها الخاصّة التي تسعى إلى تكريسها. هذا مع عدم إهمال الجانب الاقتصاديّ، الذي هو عاملٌ أسـاسٌ في اسـتمرار العمل وتطوّره. ومـن هنا، أصبح من الصعب الحديث عن حياد وسـائل الإعلام وموضوعيّتها، وهي التي بيدها تحديد ما يجب أن يُنشر، وما يجب أن يُهمل، بل كيف يجب أن يُنـشر وفق آليّات الحذف، والتضخيم، والتهميش، والانتقاء في سياق تحقيق أكبر قدرٍ من غزو العقول والأفكار.

أدرك صنّـاع القـرار أنّ «التحكّـم في المعلومـات يعطـي الحكومة السـيطرة على عقول مواطنيها»[٢]؛ وأنّه لا بدّ من حماية النخبة الحاكمة من غضب الجماهير الممثِّلة للرأي العام، التـي يُنظر إليها عـلى أنّها «قطيعٌ تائهٌ يحتـاج للتوجيه من النخبة الحاكمـة». ولذا، لا بدّ من إجبارهم على الموافقة على ما تقرّره هذه النخب عن طريق التحكّم بعقولهم، وتشكيل وعيهم عـبر تكثيف الدعاية الموجّهة إليهـم[٣]. من هنا، اقتضت مصالح الحكومات السـيطرة على النخـب الإعلاميّة -المحلّلين والمحرّرين والمذيعين-، وخلق التناسـق التامّ بين ما يسـعون إليه من أهداف، وما تقدّمه الوسائل الإعلاميّة من مخرجات، حتّى ولو من خلال اللجوء إلى تزييف الحقائق[٤]، فأصبح الإعلام جهاز دعايةٍ يقوم بصياغة المحتوى الموجّه إلى الجماهير، بما يؤيّد مصالح الحكومات والشركات الكبرى، وأصبح الخطاب الذي يوفّره ممارسةً سلطويّةً تؤطّر الحقيقة وتنتج معرفـةً التي لا تنقل الواقع كما هو، بل تبنيه وفق رؤيتها الخاصّة، تحت

١ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٢.
٢ - صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص٨٧.
٣ - نعوم تشومسكي: الإعلام وصناعة الموافقة، ص١٠.
٤ - صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص٨٨.

مسمّى «حماية القطيع التائه من الأفكار الخاطئة»[١].

لا بدّ هنا من الالتفات إلى النقد الذي يطال وسائل الإعلام بشكلٍ عام، والذي يمكن تلخيصه بالآتي[٢]:

- تقوم وسائل الإعلام بتقديم آراء وأهداف مالكيها على سواها، خصوصًا في السياسة والاقتصاد.
- تعمل في خدمة الشركات الكبرى، وأحيانًا يسيطر المُعلِنون على سياسة التحرير ومضمونه.
- تحافظ على الطبقات الاجتماعيّة وتقاوم التغيير الاجتماعيّ وتهدّد المعنويّات العامّة.
- تغطّي الأمور السطحيّة والعاطفيّة أكثر من الأمور المُهمّة.
- تغزو خصوصيّة الأفراد دون سببٍ مشروع.
- تسيطر عليها طبقةٌ واحدةٌ أخطر ما تكون على السوق الحرّ للأفكار[٣].

ومنه يبدو من الواضح أنّ وسائل الإعلام لم تعد إلا أداة تنفيذيّة، لا لنقل الحقائق، بل لإنتاجها ضمن القالب المعدّ سلفًا، أمّا المعارف التي تقدّمها، فهي تصبّ في مصالح أيديولوجيّة مهيمِنة.

١ - تأثير وسائل الإعلام

التأثير عبارةٌ عن «مجموع التغيّرات الظاهرة أو الكامنة التي تحدث نتيجة الاتّصال، سواءٌ وقعت في المدى القريب أم المتوسّط أم البعيد»[٤]، وقد يكون نفسيًّا، أو اجتماعيًّا، أو فكريًّا... وهو الهدف النهائيّ لعمليّات الاتّصال، وقد يكون سريعًا، أو متوسّط المدى، أو بعيد المدى؛ وهذان الأخيران يكونان في حالات تكوين الاتّجاهات، والقِيَم، والأفكار عبر تكرار المعطيات

١ - نعوم تشومسكي: الإعلام وصناعة الموافقة، ص٦٤.

٢ - هذا النقد قدّمه (ثيودور بيترسون-Theodor Peterson) لوسائل الإعلام الأمريكيّة، ولكن يمكن الاعتماد عليه في المقام.

٣ - صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص٨٩.

٤ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٣.

الإعلاميّة وتراكمها لفترةٍ طويلة[1].

يعتبر المفكّرون أنّ الدعاية التي تقدّمها وسائل الإعلام، هي الوسيلة الأكثر اقتصاديّةً في خلق الانتماء والولاء لدى الجماهير، وهذا ما يكرّس القوّة الهائلة لهذه الوسائل؛ بحيث تعدّ الرسائل الإعلاميّة كالرصاصة، التي إذا ما وُجّهت وأُطلقت بالشكل المطلوب، تصيب مرماها من دون شكّ[2].

تلاحظ هذه النظريّة أنّ ما تقدّمه وسائل الإعلام يقوم بدور المنبّهات القويّة لمشاعر الجماهير، بحيث يستجيبون لها بشكلٍ متقارب، وهذه الاستجابة، التي تشكّل قوّة وسائل الإعلام، تعود أساسًا إلى ضعف وسائل الضبط الاجتماعيّ؛ إذ يتلقّى الفرد معلوماته من وسائل الإعلام مباشرة.

وفي هذا السياق، يمكن أيضًا ملاحظة نظريّة «الغرس الثقافيّ»[3] التي تركّز على مفهوم التعلّم العرضيّ الناتج عن التعرّض التراكميّ لوسائل الإعلام؛ بحيث يتعرّف المشاهد بصورةٍ غير واعية على الحقائق، لتصبح شيئًا فشيئًا الموادّ الخامّ لصوره الذهنيّة وقِيَمه التي يتبنّاها عن العالم الحقيقيّ، وهذه عمليّةٌ مستمرّةٌ وديناميكيّةٌ للتفاعل؛ بحيث تؤكّد الأبحاث أنّ وسائل الإعلام أصبحت قوّةً مسيطرةً على كثيرٍ من الناس، ومصدرًا رئيسًا لبناء تصوّراتهم عن الواقع والعلاقة معه؛ فكلّما ازدادت فترة التعرّض لوسائل الإعلام، أصبحت أكثر قدرةً على غرس الاعتقاد لدى المشاهد بأنّ ما يراه هو صورٌ مماثلةٌ للعالم الواقعيّ؛ أي أنّه هو الحقيقة لا غير.

ولا يخفى دور التغيّرات العميقة التي أحدثتها الثورة التكنولوجيّة الهائلة، وحياة الناس في مدنٍ كبيرةٍ تفتقر للحياة الاجتماعيّة، في خلق حالةٍ من العزلة والشعور بالوحدة والقلق، والتوجّه نحو وسائل التواصل للاستعاضة بها عن الحياة الاجتماعيّة المفقودة. وهذا ما يجعل هذه الوسائل مرغوبةً بشدّةٍ؛ لأنّها تؤمّن البديل عن العلاقات الضروريّة للإنسان، وتقدّم له ما يحتاجه من

---

١ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٣.

٢ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٤.

٣ - تعرّضت هاتان النظريّتان للعديد من الانتقادات، لكنّ المختصّين يرون أنّهما مثاليّتان في فهم وسائل الإعلام وتحليل تأثيراتها، ونظريّة المجتمع الجماهيريّ في ضوء التطوّر الكبير لتكنولوجيا الإعلام والاتّصال، والانتشار الواسع للقنوات الإعلاميّة الافتراضيّة.

معارف في شتّى المجالات، وتساعده على تكوين الرأي وتوجيه السلوك[١].

إنّ صناعة الحقيقة باتت اليوم رهينة الأدوات التكنولوجيّة والمعلوماتيّة والعلميّة والاتّصاليّة والأمنيّة، بحيث تتضافر لخلقها وإنتاجها جهود مجموعاتٍ كبيرة من الخبراء والمفكّرين والسياسيّين والإعلاميّين الذين يستخدمون الأدوات الأكثر فعاليّةً في التأثير من خلال أكثر الطرق نعومةً.

وهذا ما حدا بعض المفكّرين إلى استخدام مصطلح «حقبة ما بعد الحقيقة» (Post-Truth Era)، ويُقصد بها الحالة التي يتراجع فيها دور الحقائق، والبيانات، والمعلومات لصالح المعتقدات والرؤى الأيديولوجيّة والرّغبات[٢].

٢ - استراتيجيّات الإعلام في إعادة تشكيل الواقع

في إطار سعيها لتقديم رسائل مهندسةٍ بعنايةٍ، لقولبة الرأي العامّ في قوالب معدّة مسبقًا، والتوصّل إلى تعديل الفكر والسلوك لمشاهديها، تستخدم وسائل الإعلام استراتيجيّاتٍ وأدواتٍ مختلفةً مدروسةً بدقّة، من شأنها تشكيل الصور الذهنيّة عبر رفد المخزون المعرفيّ بالمعلومات المطلوبة؛ حيث إنّ عمليّة إقناع المتلقيّ بفكرةٍ ما تعتمد على مجموعةٍ من المتغيّرات تتعلّق بطريقة تقديم الفكرة نفسها، وأسلوب التعبير عنها ونقلها للآخر، والنخب الإعلاميّة هي التي تصوغ الحقيقة عبر آليّاتٍ تنظيميّةٍ دقيقة، ووفق نماذج محدّدة مثل الدعاية الإعلاميّة والكبسولات المعرفيّة المغلقة[٣]. ويمكن في هذا الإطار، ذكر مجموعة من أهمّ الاستراتيجيّات المستخدمة وفق الآتي:

أ. تحديد جدول الأعمال: ما يجب تقديمه، وما يجب تجاهله بشكلٍ عام وفق سياسات وسيلة الإعلام، والبرامج التي سوف تتطرّق لكلّ موضوعٍ وعنوان. مضافًا إلى اختيار الأوقات المناسبة لتقديم كلّ عنوان؛ في أوقات الأزمات، حالات الخوف أو الغضب..

---

١ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٤.

2 - Oxford Dictionaries. «Word of the Year 2016: Post-Truth».

٣ - المقصود منها هنا: التقارير أو السرديّات التي يجري تقديمها على أنّها حقيقة جاهزة.

ب. الإطـار المعتمد لتقديـم المعلومات: بحيث تحقّق أكبر قدرٍ مـن توجيه الانفعلات والتصوّرات. وفي هذا العنوان، يمكن ذكر:

- كيفيّة تقديم القصّة أو تصوير طـرفي الخلاف: فقد تُصوّر المظاهرات المطالبـة بالحقـوق على أنّها أعمال شـغب، أو يجري شـيطنة بعض الحركات المعارضـة، أو تصوير القضيّة على أنّهـا خلافٌ بين «نحن» «الكيان المتحضّر»، و«الآخر» الإرهابيّ المتخلّف.
- البراعة في اسـتخدام المفردات، مثل حقوق الإنسان، والأمن القوميّ، والديمقراطيّـة، مضافًا إلى صناعـة مفرداتٍ ومصطلحـاتٍ جديدةٍ أو اللعب في معانيها ومضامينها؛ ويمكن هنا الاستفادة كمثال من مصطلح «الحقائق البديلة» غير الكاذبة الذي تمّ اعتماده للأخبار المزيّفة[1].
- انتقاء الإحصاءات بعناية، واختيار عيّنةٍ للبحث تدعم الفرضيّة، وتضخيم بعض الأرقام مع تجاهل أخرى، كما لو أرادت وسيلةٌ إعلاميّةٌ تضخيم معدّلات البطالة، فإنّها لا تحتسـب العاملـين وفق نظام «العمل الحرّ» على سبيل المثال.

ج. المصادر المعتمدة: تعتمد الوسائل الإعلاميّة، بشكلٍ شبه حصريّ، على تصريحاتٍ حكوميّـةٍ مع إقصاء أو التقليل من قيمة المصـادر الأخرى، مضافًا إلى اعتماد خبراء من مراكز ومؤسّسات معيّنة، وهنا يمكن التفصيل بين أمورٍ ثلاثة:

- قيام وسـائل الإعلام بالتزوّد بمعلوماتها من صنّـاع القرار، الذين يوفّرون أخبـارًا يوميّة مضافًـا إلى توفير خبراء مختارين بعناية، تتكرّر أسـماؤهم في البرامج الأخباريّة والسياسـيّة، ما يشكّل لدى المتلقّين قناعةً بكونهم

١ - كان هذا المصطلح مثار الجدل الذي أثارته (كيليان كونواي-Kellyanne Conway)، مستشارة الرئيس الأمـيركيّ (دونالد ترامـب- Donald Trump)، عندما اعتبرت تصريحات الناطق الرسـميّ باسـم البيت الأبيض عن الجمهور الغفير الذي حضر حفل تنصيب الرئيس حقائق بديلة غير كاذبة، بيد أنّ مقارنة صور هذا المشهد بحفل تنصيب (باراك أوباما - Barack Obama) تُبيِّن أن تلك المعلومات لم تكن حقيقيّة.

يمثّلون الرأي العقلانيّ الموثوق، ويكرّسهم مراجع شبه دائمة في الأزمات.

- إنشـاء علاقةٍ تبادليّةٍ مع مراكز الدراسات والأبحاث والتفكير، واعتماد دراساتهم وتحليلاتهم وإحصاءاتهم، واسـتضافة مفكّريهم وباحثيهم والترويج لهم. وفي الحقيقة، هذا العامل نوعيٌّ وأساس في التأثير؛ لأنّه يخلـق لدى المتلقّي قناعةً بما يُقدَّم لـه، فيتضاءل في ذهنه أيّ احتمالٍ للخلاف حتّى لا يعود مُلتفتًا إليه؛ وذلك لأنّ مثل هذه الأبحاث تعتمد لغة الأرقام التي لا تخطئ، وسلطة العلم والمعرفة.

د. تقنيّـات الإقناع العامّة: تندرج فيها مجموعةٌ ممّا سـبق ذكره وغيرها من الأسـاليب، كاللغة المستخدمة والمصطلحات، والتكرار لترسيخ الرسالة في الذهن، واستخدام الإحصاءات بوصفهـا أرقامًا محايدة، وإضفـاء الطابع العلميّ، وتنشـيط الجيوش الإلكترونيّة والحسابات الوهميّة.

ثالثًا: مراكز الأبحاث والتفكير- مصانع إنتاج المعرفة

يُعدّ ظهور مراكز الأبحاث والدراسات في الديمقراطيّات الحديثة ظاهرةً حديثةً نسبيًا؛ بحيث يُرجعهـا الباحثون إلى مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الأولى، وقد ازداد عددها وتأثيرها بشـكلٍ ملحوظٍ إبّان الحرب الباردة، إلى أن أصبحت مطلع النصف الثاني من القرن العشرين لاعبًا رئيسًا في إنتاج المعرفة، وصياغة القرارات، والتأثير على الرأي العام[1].

فإذا غضضنا النظر عن الخلاف والغموض الذي يكتنف تعريفها بشكلٍ عام، يمكن القول إنّ مراكز البحث والفكر -كما تعرّفها جامعة أوكسـفورد-، «تمثّل مؤسّسـاتٍ بحثيّةً تسعى إلى لعبٍ دورٍ رئيس في صنع السياسات العالميّة والإقليميّة والوطنيّة والتأثير عليها، في حين أنّ كلّ مركزٍ بحثيٍّ يخدم غرضًا محددًا، لكنّها جميعًا تشـترك في رؤيةٍ مشتركةٍ لتحسين قطاعاتها، فضلاً عن

١ - حسين مزهر خلف: مراكز البحث والتفكير الأمريكيّة ودورها في صنع القرار السياسيّ الخارجيّ- بروكينغز وكارنيغي أنموذجًا، ص١٥٩.

كونها مصادر للأفكار والأبحاث الجديدة»[١].

ومن المهمّ الإشــارة أنّه حتّــى عقد الأربعينيّات من القرن المــاضي، كان يجري تعريف أغلب مراكز التفكير على أنّها مؤسّساتٌ أو مراكز للدراسات والأبحاث، لكنّه جرى إطلاق تسمية مراكز التفكير أو صناديق الأدمغة، أثناء الحرب العالميّة الثانية، على نوعٍ محدّدٍ من المؤسّسات البحثيّة، هي التي تضطلع بمهمّة تقديم التوجيه والإرشاد لصنّاع القرار، وتؤثّر في صنع السياسات العامّة[٢].

ومن خلال تتبّعٍ بسيطٍ، يمكن رؤية فرقٍ دقيقٍ بين مراكز الفكر ومراكز الدراسات أو الأبحاث؛ حيث إنّ مراكز الفكر مشهورةٌ بتبعيّتها الأيديولوجيّة والسياسيّة، ولها تمويلٌ واضحٌ وهدفٌ محدّدٌ هو التأثير في السياســات وفي الرأي العام. أمّا وظيفتها، فتكمن في صياغة تحليلاتٍ وتوصياتٍ اســتراتيجيّة وفق خطــابٍ موجّهٍ، حتّى لو لبس لبــوس الصبغة العلميّة. في حــين تهدف مراكز الدراســات أو الأبحاث التي ترتبط في الغالب بجامعاتٍ أو مؤسّساتٍ أكاديميّة، لإجراء أبحاثٍ ودراساتٍ منهجيّةٍ تنتج معرفةً علميّة، في خطابٍ أقّل انخراطًا في السياسة. هذا في الرؤية البَدْويّة، ولكن عمليًّا، فإنّ مراكز الدراســات ليســت مســتقلّةً تمامًا، وكثيرًا ما تخضع للجهات المموّلة أو الأيديولوجيّــات والسياســات؛ حيث يكون لها أهداف الأُولى نفســها، ولكــن مرتديةً الرداء الأكاديميّ؛ بحيث يشــير (راوين كونيل- Raewyn Connell) إلى أنّه "عندما تعتمد الجامعات على تمويل شركات أو أجندات الدولة، فإنّ المعرفة التي تُنتجها ليست محايدة، بل تميل إلى أن تعكس مصالح الجهة المموّلة، وتصبح -في الجوهر- معرفةً أيديولوجيّة"[٣].

١ - وظائف مراكز الأبحاث والتفكير

إنّ الأفكار هي التي تشكّل العالم، ومراكز الأبحاث لم تعد في العالم المعاصر مجرّد مؤسّساتٍ علميّةٍ

---

1 - Oxford University Careers Service. Think Tanks.

٢ - حسين مزهر خلف: مراكز البحث والتفكير الأمريكيّة ودورها في صنع القرار السياسيّ الخارجيّ- بروكينغز وكارنيغي أنموذجًا، ص١٦٢.

3 - Raewyn Connell, Southern Theory: The Global Dynamics of Knowledge in Social Science, p.125.

بحثيّــة، بل أصبحت نقطة الاتّصال بين عالم البحث وعالم السياســة، وبهذا لم تعد وظيفتها الوحيدة تقديم المنتج الفكريّ والمعرفيّ، بل استخدامه بوصفه سلاحًا وأداةً سياسيّةً؛ بحيث لا تعود مجرّد ناقلٍ للمعرفة، بل تتعدّى ذلك إلى ترجمة البحث الأكاديميّ إلى توصياتٍ قابلةٍ للتطبيق وفق رغبات صانعي القرار. ومن هنــا، فإنّ هذه المراكز المتفاوتة تفاوتًا كبيرًا في أحجامهــا وهيكليّاها ومواردها، -كما في مجال أبحاثها ودراساتها-، أصبحت لها وظائف أبعد من العالم البحثيّ العلميّ، تصل إلى:

أ. توليد الأفكار، ووضع خارطةٍ لتطبيقها، وقياس مدى فعاليّتها على مختلف الأصعدة.

ب. تحليل الوقائع، واستشراف المستقبل، وتقديم رؤى مستقبليّة تساهم في تطوير الواقع والنهوض به.

ج. وضع الاســتراتيجيّات المبنيّة وفق مبادئ علميّة، للوصول إلى قراراتٍ ذات أســس متينةٍ، وتقليل احتماليّة الخطأ.

د. تقديم الاستشــارات المتنوّعة، خصوصًا فيما يخصّ القضايا التي تحتاج إلى معرفةٍ متخصّصةٍ، ودقّةٍ في اتّخاذ القرار.

ه. توفير قاعدة بياناتٍ بحثيّةٍ وتطوير البحث العلميّ في المجالات كافّةً.

و. الدخول باعتبارها طرفًــا توفيقيًّا بين الأطراف الحكوميّة المتنازعة، وتقريب وجهات النظر المتباينة في سياساتٍ معيّنة.

ز. المشاركة في العمليّة الدبلوماسيّة عبر خبراء يرافقون الوفود، ويكونون جزءًا من مسار التفاوض في قضايا موضع خلافٍ ونقاش.

ح. توفير خبراء للعمل في مراكز عُليا حسّاسة.

ط. لعب دور القناة الإعلاميّة للمسؤولين الكبار، عبر إرسال رسائل استباقيّة غير مباشرة.

ي. تشكيل الرأي العام عن طريق تقديم معرفةٍ موجّهة، تسهم في تحقيق سياساتٍ معيّنة[1].

ومــن خلال ملاحظة هذه الوظائف المتنوّعة، يمكن أن نخــرج بنتيجةٍ، مفادها أنّ مراكز البحث والتفكــير لا تكتفي بالتفكير، بل تفكّر بغرضٍ، فهي تســعى لصياغة البدائل في مختلف المســائل

١ - هزار إسماعيل: دور مراكز الأبحاث في عمليّة صنع القرار وإعداد السياسات العامّة، ص٣٤.

الخلافيّة وتسـويقها، ويكمن تأثيرها في قدرتها على تحويل المعطيات إلى توصياتٍ، يسهل تبنّيها مـن قِبَل صُنّاع القرار، وإقناع الجمهور بها. فعمل هذه المؤسّسـات لم يعد مقتصرًا على العلم، بل توسّـع إلى ربط البحث الأكاديميّ بالواقع السـياسيّ، وردم الهوّة بين النظريّ والعمليّ، من خلال تقديم أوراق تحليليّة، ورؤى اسـتراتيجيّة، وإنتاج الأفكار والتوصيات التي سوف يُعاد تدويرها في الإعلام من أجل تشكيل الوعي الجماهيريّ؛ فإنّ توليد الأفكار ومشاركتها يمكن أن يؤدّي إلى تغيير طريقة التفكير في قضايا رئيسـة ومصيريّة. ولذا، تأخذ هذه المراكز أدورًا مختلفة من البحث ونشر الإحصاءات، والدعوات إلى الحوار، وتقديم برامج تدريب، وإنتاج الكتب، والظهور عبر وسـائل الإعلام لإيصال رسائلها. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنّه وفقًا لتقرير State of the Sector: Insights from the Global Survey of Think Tanks لعام ٢٠٢٤، الصادر عن منصّة On Think Tanks، أفاد أكثر من ٧٠٪ من مراكز التفكير المشـاركة بأنّها أثّرت في نتائج السياسـات العامّة، وعمليّات اتّخـاذ القرار في بلدانها خلال السـنوات الثلاث الماضية[1]؛ ما يطرح علامات اسـتفهامٍ كبيرةٍ عن تحوّل هذه المؤسّسات تحت غطاءٍ علميٍّ إلى مجرّد أدواتٍ تخدم منظومة الهيمنة.

وحينـما يُعلم أنّ المنظومة الإعلاميّة، ومراكز التحليل والأبحاث لا تقدّم تحليلاتٍ مسـتقلّةً، بل تنتجهـا تحت غطاء العلم والخبرة، يصبـح من المحتّم القول إنّ المعرفـة الصادرة من هذه المؤسّسات لم تسلم من التحوّل إلى «معرفةٍ مسلّطة»...

٢ - إنتاج المعرفة وفق الأيديولوجيا

تواجه مراكز البحث والتفكير معضلة الاستقلاليّة فيما تقدّمه من معرفة. فإذا ما راجعنا بشكلٍ مختـصرٍ أنواع هذه المراكز، وجدناها إمّـا مراكز مرتبطة بالدول، أو مراكـز تموّلها جماعاتٌ أو جهاتٌ سياسـيّة، أو مراكز مستقلّةٌ نسـبيًا، وهذا ما يطرح بقوّةٍ هاجس التمويل الذي له ما له من تأثيرٍ على نتائج ومخرجات هذه المؤسّسـات، هذا مضافًا إلى التأثـير الضخم للعامل المتمثّل بالخلفيّات الأيديولوجيّة. وهنا يُقال إنّ مراكز الدراسات لا يمكن أن تنفصل، في بنيتها التمويليّة

1 - On Think Tanks. State of the Sector: Insights from the Global Survey of Think Tanks.

وخطابهـا المعرفيّ، عن المنظومة الأيديولوجيّة والسياسـيّة التي تخضع لهـا، خصوصًا عندما تدخل في شراكةٍ مع مؤسّسةٍ إعلاميّة، أو تستثمر في مشاريع سياسيّة. وفي الواقع، إنّ هذه المراكز البحثيّة، التي تتلبّس بلبوس العلم، تنتج معرفةً مسلّطةً ترتدي قناع الحياد، لإخفاء حقائق وصناعة وتزييف أخرى، وفق متطلّبات الجهات الداعمة وتوجّهاتها الأيديولوجيّة، مثل هذه المعرفة القابلة للمسـاومة، يمكنها أن تتلاعب بالأولويّات البحثيّة، واختيار العناوين، وجمع البيانات، وانتقاء العيّنات وطريقة القياس، وطرح التحليلات، وصياغة التوصيات، كما أنّ أخطر ما يمكن تقديمه، في هذا الإطار، هو تغليف الأيديولوجيا بغلافٍ علميٍّ مبنيٍّ على أدلّةٍ وبياناتٍ غير دقيقةٍ، لشرعنة الخيارات السياسيّة أو الاقتصاديّة أو سواها، ومن هنا يُرسم القالب الذي سوف تقدّم فيه الحقيقة المُعاد تشكيلها من خلال الإحصاءات والتحليلات والتوصيات العلميّة.

إنّ إدراك صنّاع القرار أنّ المعرفة عنصرٌ مهيمنٌ وجذّاب، دفعهم إلى تسخيرها للتوصّل إلى الهيمنة باستخدام سـلطان العلم الذي تقدّمه المؤسّسات البحثيّة، وهذه العلاقة الثلاثيّة التي كانت رماديّةً منذ سـنوات عدّة، باتت واضحة المعالم بين صنّاع القرار، الذيـن يقدّمون للمراكز أهدافًا محدّدةً، كيما يعملوا على تخريجها وفق ما تمليه المبادئ العلميّة والفكريّة، وتتبنّاها النخب الإعلاميّة على أنّهـا حقيقةٌ ناتجةٌ عن أبحاثٍ علميّةٍ ذات مصداقيّةٍ عالية، من خلال أدوات الإقناع المختلفة، التي تشـكّل الرأي العام والإذعان الجماهـيريّ. وفي حين تكوّن مراكز الدراسـات الأفكار والقرارات المأدلجـة، التـي يقدّمها باحثوها في مؤتمراتٍ ونـدواتٍ ودوراتٍ تدريبيّة، تعمل وسـائل الإعلام باعتبارهـا واجهاتٍ لعرض هذه الأفـكار، من خلال المقالات، وإجـراء المقابلات، وتقديمها في النشرات ومختلف البرامج. فالعلاقة بين وسـائل الإعلام التـي تعتمد على مراكز الأبحاث لتقديم معرفةٍ لا تخضع للمساءلة، ومراكز الأبحاث التي تعتمد على الإعلام لإيصال أفكارها ورؤاها، هذه العلاقة علاقةٌ تكامليّة. وبذا يمكن -بكلّ هدوءٍ- تقليل النقاش المضادّ إلى أدنى مسـتوى، وإضفاء المشروعيّة على الحروب، والعقوبات الاقتصاديّة، والتدخّلات السياسيّة، أو تمرير مشاريع القوانين وحشد التأييد لسياساتٍ معيّنة، وتوجيه مختلف الخيارات الاقتصاديّة والثقافيّة والاجتماعيّة... عبر فرض قوالب تفسيريّة معيّنة، وتضييق مساحة النقد أمام الرأي العامّ؛ لأنّ الجمهور غالبًا ما يثق بمثل هذه المراكز التي تتحدّث بلغة الأرقام والتحليل، لا بلغة الرأي والموقف؛ فيرى فيها سلطةً محايدةً

يطغـى على خطابها الطابع العلميّ، بما يمنحها حصانةً تصعّب مسـاءلتها. وحين تُحدّد أولويّات الجمهـور، وتُقدّم له الحقائق بلغة الأرقام التي لا تخطئ، ويُعاد تكرار المصطلحات المشـوِّهة للواقع، وتُهمّش الأصوات المخالفة، ويُسـتبعد التفكير النقديّ، وتُقدّم المعرفة المسـلّطة على شـكل دراسـاتٍ علميّةٍ مؤيَّدةٍ بتحليلاتٍ من قِبل من يُوثق بأنّهم أهل علمٍ وخبرة، خصوصًا في أوقات الأزمات المختلفة التي يحتاج فيها الناس للاطمئنان، ولأنّ جلّ الجمهور لا يمتلك الوقت الكافي، أو القدرة التي تسمح له بالبحث عن الحقائق الموضوعيّة، ونقد ما يجري عرضه عليه، ولأنّ أدوات الإقناع التي يستخدمها مثلّث السلطة، والإعلام، ومراكز الدراسات مدروسةٌ بعناية، فإنّ الأعمّ الأغلب تنطلي عليهم هذه الحقائق، وتأتي بالثمرة المرجوّة منها.

رابعًا: صناعة الحقيقة في حرب غزّة[1]

حرب غزّة ٢٠٢٣م هي مثالٌ نموذجيٌّ على "صناعة الحقيقة" عن طريق التنسـيق الكامل بين

١ - ملاحظـة: لجـأ هذا البحث في بعض تفاصيلـه إلى تقارير مراكز الأبحاث؛ والسـؤال: كيف نبرّر استخدام مخرجات مراكز الأبحاث لنقد دور مراكز الأبحاث؟
أمّا الإجابة فتكمن في مجموعة من النقاط:
لا يهـدف المنهج النقديّ إلى الرفض مطلقًا بـل إلى التفكيك المبنيّ على التحليل العلميّ؛ فلا يقول إنّ جميع المراكز غير نزيهة؛ بل إنّ بعضها، -خصوصًا المرتبط منها بالنخب السياسـيّة أو الاقتصاديّة أو الثقافيّة...-، يسهم في صياغة خطابٍ موجّهٍ يصبّ في مصالح بعينها.
يفـترض منهـج البحث النقـديّ إمكانيّةً نقد بنيـة النظام المعرفيّ مـن داخل النظام نفسـه. وعليه، يمكن اسـتخدام تقارير بعض المؤسّسـات وتحليلاتها، لنقد النسق الذي تعمل وفقه مؤسّساتٌ أخرى؛ حيث إنّ هنـاك بعض مراكز الأبحاث التي تدرس بنيـة مراكز الأبحاث الأخرى وأدوارها، كما اعتمد (أندرو ريتش-Andrew Owen Rich) في كتـاب Think Tanks and the Politics of Expertise عـلى الدراسـات الميدانيّة وتحليل التمويلات وخرائط التأثير. ثمّ إنّنا نجد داخل مراكز الأبحاث نفسـها أصواتًا نقديّةً تشير إلى ثغـراتٍ في التمويـل أو الضغـوط الخارجيّة أو التأثير؛ ممّا يكون شـاهدًا ذا قيمة كبـيرة. وفي الختام يجري اعتماد دراسـات مراكز الأبحاث والأكاديميّين المستقلّين، لا ما تنتجه مراكز المتّهمة بالتواطؤ، هذا مع مراعاة عدم التسـليم المطلق بالمصداقيّـة، بل بإخضاعها للنقد العلميّ. وعليه، فإنّ اسـتخدام بعض دراسـات مراكـز الأبحاث في نقد دور هـذه المراكز ليس نقضًا للمنهج العلميّ، بل هـو عمليّة نقدٍ بنيويٍّ تستخدم أدوات المنهج العلميّ نفسه، للتمييز بين المراكز المستقلّة، وتلك المتواطئة فيما تقدّمه.

الأقطاب الثلاثة؛ السلطة والنخب الإعلاميّة ومراكز الدراسات والتفكير، في عالمٍ لم تعُد فيه الضحيّة تُقتل بآلات القتل العسكريّة فحسب، بل يُخفى صوتها بالتضليل وحذف المحتوى، وتُشوّه صورتها من خلال فرض روايةٍ مزيّفة.

ففي سياق هذه الحرب، برزت بوضوح "الحقيقة الرسميّة" المزيّفة من خلال تعاونٍ وثيقٍ بين الحكومات والنخب الإعلاميّة الغربيّة والعربيّة، ومراكز الأبحاث المرتبطة بالمصالح الجيوسياسيّة، وفق المقولة المشهورة: "الصراع ليس فقط على الأرض، بل على السرد".

١ - نبذة عن حرب غزّة[١]

في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، نفّذت فصائل المقاومة الفلسطينيّة هجومًا على جنوب الكيان الإسرائيليّ الغاصب، عُرف بعمليّة «الأقصى تنتفض»، في سياق نزاعٍ ممتدٍّ منذ ١٩٤٨؛ حيث تُعتبر الأراضي الفلسطينيّة المُحتلَّة منذ نكبة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧، وفق تقارير الأمم المتّحدة، خاضعةً لاحتلالٍ عسكريٍّ إسرائيليّ مستمرّ. وقد أُعلن عن هذا الهجوم في إطار حقّ المقاومة المشروعة -كما هو منصوصٌ في القانون الدوليّ- ضدّ الاحتلال.

ردّت إسرائيل بحملة قصفٍ جويٍّ وبحريٍّ وبريٍّ مكثّفٍ على القطاع، وأتبعتها بعمليّةٍ برّيّةٍ واسعة.

ما زالت الحرب الإسرائيليّة قائمةً حتّى تاريخ كتابة هذه الكلمات، تاركةً ما يزيد على ٤٨ ألف شهيد[٢]، جلّهم من النساء والأطفال، مع تدمير أكثر من ٢٥٠ ألف وحدةٍ سكنيّة، و٢٩ مستشفى، و١٧٠٠ مدرسة، و٨٥٪ من البنى التحتيّة، مضافًا إلى انعدام الأمن الغذائيّ الحادّ بحيث طالت

---

١ - في الأزمات الإنسانيّة الكبرى يكون كلّ حيادٍ تواطؤ، يقول (إدوارد سعيد): "الكتابة عن الشرق الأوسط لا يمكن أن تكون محايدةً إذا كانت تتجاهل تجربة الشعب الفلسطينيّ، الحياد الحقيقيّ هو الوقوف مع المعرفة، لا مع القوّة".

٢ - آخر إعلان من وزارة الصحّة في غزّة، خلال مؤتمرٍ صحفيّ يوم ٤ آب ٢٠٢٥م، وقد أشارت تقديرات (OCHA) وWHO)) إلى أنّ نحو ٧٠٪ من الشهداء من النساء والأطفال.

المجاعة ٩٧٪ من سكّان القطاع[١].

وهنا تظهر الإشكاليّة الجوهريّة: كيف تناولت وسائل الإعلام الدوليّة ومراكز الأبحاث هذه الأحداث؟ وما هي الإطارات الخطابيّة التي استُخدمت لوصف الأطراف، وتقديم الأسباب، وتفسير الأضرار؟ فإنّ السرد اليوم يؤثّر من دون شكٍّ على السياسات الدوليّة، والرأي العام، وفهم العدالة والشرعيّة.

٢ - دور الإعلام في الحرب

أ. تصفية الأخبار والاختيار الانتقائيّ

يتجلّى في تغطية وسائل الإعلام للحرب على قطاع غزّة نمطٌ متكرّرٌ من التحيّز البنيويّ، يبدأ بإهمال السياق التاريخيّ للصراع الفلسطينيّ- الإسرائيليّ، فغياب الإشارة إلى نكبة ١٩٤٨، والاحتلال المستمرّ منذ ١٩٦٧، والحصار المفروض منذ ٢٠٠٧، يجعل الأحداث تُقدّم على أنّها معزولةٌ عن حلقة النزاع بين الجلّاد والضحيّة.

إلى جانب ذلك، تُلاحظ المفارقة الواضحة في تغطية الخسائر: ففي حين تُغطّى الخسائر الإسرائيليّة مع تفصيلٍ إنسانيّ -أسماء، وصور، وقصص شخصيّة- تُقدّم الخسائر الفلسطينيّة باعتبارها أرقامًا مجمّعة، غالبًا تحت وصف "أضرار جانبيّة" أو "ضحايا غير محدّدين". كما تُشكّك بعض وسائل الإعلام في مصداقيّة أرقام وزارة الصحّة في غزة.

ثمّ إنّه يُعتمد بشكلٍ شبه حصريٍّ على المصادر الإسرائيليّة، بينما تُقلّل وسائل الإعلام من مصداقيّة المصادر الفلسطينيّة أو المنظمات الحقوقيّة المستقلّة، حتّى التابعة منها للأمم المتّحدة.

وعلى صعيد وسائل التواصل الاجتماعيّ، جرى توثيق الحجب الواسع للمحتوى الفلسطينيّ تحت ذرائع "انتهاك سياسات المجتمع"، بينما يُسمح لنفس المصطلحات بالانتشار عند استخدامها ضد الفلسطينيّين[٢].

---

١ - هذه الأرقام مأخوذةٌ من تقريرات منظّمة الصحّة العالميّة ومنظّمة الأونروا.

2 - Amnesty International. Silenced: How social media platforms censor Palestinian voices.

ب. استخدام وسائل الإقناع

- صياغة الحرب ضمن إطار «المأساة المزدوجة» التي يُعطى فيها «الضحايا الإسرائيليّون» مركز الصدارة، بينما يُقدّم الفلسطينيّون بوصفهم «مصدرَ تهديدٍ»، وغالبًا بوصفهم «إرهابيّين» دون سياق مقاومة الاحتلال.
- استخدام المفردات المُلطَّفة لتقديم العنف الإسرائيليّ، مثل «عمليّة عسكريّة دقيقة»، أو «ردّ فعل»، أو «إجراءات أمنيّة»، بينما تُوصف المقاومة بـ«هجوم إرهابيّ»، كما يُوصف المدنيّون الفلسطينيّون بـ«أضرار جانبيّة».
- تكريس هذه السرديّة عبر تكرارٍ ممنهجٍ في الوسائل الإعلاميّة الكبرى، ما يُنتج «التوافق الإعلاميّ» الذي يُهمّش أيّ روايةٍ بديلة.
- استخدام تحليلات مراكز الأبحاث والتفكير لتبرير العمليّات العسكريّة، غالبًا من مراكز مرتبطة بسياساتٍ حكوميةٍ غربيّة، ما يُضفي شرعيّةً أكاديميّةً على خطاب القوّة.

٣ - دور مراكز الدراسات والأبحاث في الحرب

منذ بدء الحرب على غزّة حتّى اليوم، أصدرت مراكز الدراسات عشرات التقارير والتحليلات التي تصوّر الحرب على أنّها «ردٌّ دفاعيٌّ مشروع»، مع التركيز على «التهديد الإرهابيّ» لحركة حماس، مضافًا إلى التقليل من أعداد الضحايا وحجم الدمار، وتهميش انتهاكات حقوق الإنسان، يُذكر على سبيل المثال:

أ. نشر معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى WINEP دراساتٍ عدّة، وصف فيها المقاومة الفلسطينيّة حماس بأنّها "ذراعٌ لإيران" و"جزءٌ من شبكةٍ إرهابيّةٍ إقليميّة"، وأنّ الحرب ليست بين إسرائيل وفصيلٍ مسلّح، بل بين "العالم الحرّ والراديكاليّة الإسلاميّة"، وقد جرى تكرار هذه العبارات نفسها في كبريات الصحف الأميركيّة، مثل واشنطن بوست ونيويورك تايمز، واستُخدمت هذه التصنيفات لتبرير تسليح إسرائيل[1]. كما أنّ المعهد نفسه أصدر سلسلةً من التقارير ركّزت على حقّ إسرائيل

1 - Matthew Levitt, The Hamas–Iran relationship.

في الدفاع عن نفسها، مع توصيف المقاومة الفلسطينيّة بأنّها «فاعل غير عقلانيّ»، و«تهديد وجوديّ»، وقد قامت المؤسّسات الإعلاميّة مثل واشنطن بوست وCNN بتكرار المصطلحات نفسها اعتمادًا على توصيات الباحثين[١].

ب. بعد القصف الإسرائيليّ لمستشفى المعمدانيّ في غزّة[٢]، تبنّت وسائل الإعلام الغربيّة مثل BBC ونيويورك تايمز الرواية الإسرائيليّة بالاستناد إلى تصريحات الخبراء والمراكز المعنيّة. وقد أظهر تحقيقٌ أجرته قناة Channel4 لاحقًا أنّ التحليلات اعتمدت على تفسيراتٍ انتقائيّةٍ للأدلّة المرئيّة، وأنّ بعض الخبراء المُستشارين كانوا غير محايدين[٣].

ج. على الرغم من كون معهد راند (RAND Corporation) بعيدًا في الظاهر عن الصراع الميدانيّ، لكنّه أنتج سلسلةً من التقارير منذ نهاية ٢٠٢٣م تناول فيها "إعادة إعمار غزّة" و"الحكم بعد حماس"، ما يعني إهمال توثيق جرائم الحرب الجارية، وتجهيز سرديّة ما بعد تدمير غزّة، وهذا التخطيط لما بعد الصراع يُعدّ وسيلةً لتطبيع الدمار[٤].

د. نشر مركز Heritage Foundation، سلسلةً من المقالات بعد ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، معتبرًا أنّ الدعوات لوقف إطلاق النار ليست إنسانيّة، بل تمثّل انتصارًا استراتيجيًّا لحماس، وحذّر من أنّ المظاهرات المؤيّدة للفلسطينيّين تُهدّد التحالف الاستراتيجيّ مع إسرائيل. وقد جرى تداول هذه الأفكار على نطاقٍ واسعٍ في وسائل الإعلام،

---

1 - Ido Levy, How Hamas built an army.

٢ - في ١٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، وقع انفجارٌ ضخم في محيط مستشفى المعمدانيّ أدّى إلى استشهاد أكثر من ٥٠٠ فلسطينيّ، وفي تغطيتها الأوّلية قالت الـ BBC إنّ الصاروخ أُطلق من داخل غزّة معتمدةً على تحليلات الجيش الإسرائيليّ، وشركة تحليلٍ فضائيٍّ Planet Labs، وخبراء من معهد "الحرب الحديثة" Institute for the Study of War، ومحلّلين من تحليلات الدفاع Defense Intelligence. أمّا نيويورك تايمز فبالاستناد إلى تحليلاتٍ من شركة Maxar Technologies، وخبراء من Middle East Eye وتحليلاتٍ عسكريّةٍ أميركيّة، خرجت بالنتيجة نفسها.

3 - Channel 4 News, Human rights investigators raise new questions on Gaza hospital explosion.

4 - RAND Corporation, Reconstructing Gaza: A Framework for a Sustainable and Secure Post-Conflict Gaza.

RAND Corporation, Governing Gaza After Hamas: Options for International Administration.

التـي عدّت النقد الإنسـانيّ للحرب على غـزّة غير واقعيٍّ، ومتواطئًـا مع الإرهاب، وذلك لتحويل النقاش حول الإبادة إلى نقاشٍ حول الولاء والأمن[1]. وقد استُخدمت تقارير مراكـز الأبحاث لنفي تهمة الإبادة الجماعيّـة، أو لتقليلها إلى «أضرار جانبيّة في سـياق مكافحة الإرهاب»، كما فعل المسـؤولون الأميركيّون في مجلس الأمن، اعتمادًا على تقارير مراكز مثل Brookings Institution، أو Center for Strategic and International Studies.

سـاهمت مثل هذه التقارير والتحليلات في إضعاف التعاطف العالميّ مع الضحايا المدنيّين مـن خلال تصوير الحرب على أنّها حربٌ على الإرهـاب، وفي خلق إجماعٍ داخل المجتمعات الغربيّة يبرّر السياسات الإسرائيليّة.

٤ - مقاومة صناعة الحقيقة

على الرغم مـن هيمنة هذا الرواية وخلفيّتها السـلطويّة، لكنّ هناك مسـاحةً لمقاومة صناعة الحقيقة المزيّفة بقيت حاضرةً لتنقل صورة الواقع كما هو.

فقد حاول الصحفيّون والمراسلون الفلسطينيّون نقل صور المعاناة الإنسانيّة والدمار باستخدام وسـائل التواصل الاجتماعيّ منبرًا بديلًا، رغم الحجب الواسـع لحسـاباتهم، وذلك في مقابل الحسابات المروِّجة للعنف ضد الفلسطينيّين التي بقيت دون رقابةٍ فعّالة.

وجهـد عددٌ كبير من الأكاديميّين والمفكّرين والناشـطين في كشـف التحيّزات المعرفيّة في التغطية الإعلاميّة، وفضح التزييـف المتعمّد للوقائع. وفي أكتوبر ٢٠٢٣، وقّع أكثر من ١٥٠٠ أكاديميّ من جامعاتٍ حول العالم على بيانٍ دوليّ يدعو إلى وقف بيع الأسلحة لإسرائيل، ويُدين الصمت الدوليّ تجاه جرائم الحرب[2].

كما انتشرت الحركات الطلابيّـة في الجامعات الأمريكيّة والأوروبيّة، مطالبةً بقطع العلاقات

1 - The Heritage Foundation, Why Calls for a Ceasefire Play into Hamas's Hands.
The Heritage Foundation, The Danger of Anti-Israel Sentiment in America.

2 - Committee to Protect Journalists (CPJ). Censorship of Palestinian voices on social media.

الأكاديميّة مع الجامعات الإسرائيليّة المتورّطة في البحث العسكريّ، وفضح التمويل الأكاديميّ المرتبط بصناعات الدفاع، ودعت إلى التحقيق في تمويل مراكز الأبحاث من شركات الأسلحة.

ثمّ إنّ مراكز الأبحاث المستقلّة لعبت دورًا لافتًا في تقديم رؤى نقديّة وتحليلاتٍ واقعيّة، مثل: Al-Shabaka، وMIFTAH (Palestine Center for Policy Research)، وForensic Architecture، التي قدّمت تحقيقاتٍ دقيقةً باستخدام الصور الجويّة، والبيانات، والشهادات، لكشف جرائم الحرب وتفنيد الروايات الرسميّة.

وأخيرًا، استُخدمت أدوات التحقّق الرقميّ والذكاء الاصطناعيّ لكشف التزييف، على سبيل المثال، أظهر تحليلٌ أجراه Bellingcat أنّ بعض المواقع التي ادّعى الجيش الإسرائيليّ أنّها "مقرّات عسكريّة لحماس"، كانت في الحقيقة مدارس ومراكز إغاثة فارغة. كما استُخدمت تقنيات تحليل الفيديو لتحديد مصدر القصف، ونفي الرواية الإسرائيليّة عن قصف مستشفى المعمداني[1].

٥ - المعرفة الحرّة والمعرفة المسلّطة في حرب غزّة

يتجلّى التباين بين هذين النوعين من المعرفة -الحرّة والمسلّطة-، بوضوحٍ في سياق حرب غزّة؛ حيث تقدّم دولة الاحتلال ووسائل الإعلام التابعة لها ومراكز الدراسات المرتبطة بأيديولوجيّتها سرديّةً تصف الحرب بأنّها «دفاعٌ مشروعٌ ضدّ تهديدٍ إرهابيّ»، هذه السرديّة تعيد تشكيل الواقع عبر لغةٍ تزيّف المصطلحات وتستخدم أكثرها تحريكًا للخوف: «تهديد وجوديّ»، و«إرهاب»، و«الحرب على الإرهاب».

في هذا السياق، يتحوّل الفلسطينيّ من ضحيةٍ للاحتلال والتطهير العرقيّ إلى "رمزٍ للشر"، بينما يُقدَّم المعتدي باعتباره ضحيّة.

في المقابل، تسعى المعرفة الحرّة إلى البقاء حيّةً من خلال كشف الحقيقة من دون أقنعة، فيجاهد الصحفيّون الفلسطينيّون، والباحثون الأكاديميّون، والناشطون المستقلّون، لتقديم الرواية

1 - Bellingcat. Gaza: Debunking Israeli military claims.

الحقيقيّة باستخدام الوقائع والمصطلحات الدقيقة: "مجازر"، و"إبادة جماعيّة"، و"تجويع"، و"مقاومة ضدّ الاحتلال"، ولا تعبرّ فقط عن الواقع الميدانيّ، بل عن المقاومة المعرفيّة التي تعيد صورة الشعب الفلسطينيّ بوصفه ضحيّةً للهيمنة العالميّة.

خاتمة

وسط زخمٍ هائلٍ من التطوّر الإعلاميّ غير المسبوق، وفي عالمٍ أصبحت فيه الكلمة تطوي المسافات الطويلة في ثوانٍ لتصل إلى أسماع جميع البشر على امتداد الأرض، كي يكون كلّ واحدٍ منهم متلقيًا للمعرفة التي يقصر عن الوصول إليها بنفسه، لم تعد الحقيقة مجرّد إبرازٍ للواقع، بل صورةٌ يجري تشكيلها وعرضها على المتلقّين من خلال تفاعلٍ واسعٍ بين النخب الإعلاميّة، ومراكز الأبحاث عبر أدوات العلم، كالتحليلات الإحصائيّة وتقنيّات الإقناع؛ بحيث يصبح المكوّن المعرفيّ المقدّم أداةً فعّالةً في ضبط الوعي وقولبة الأفكار؛ وذلك لأنّ الصراع على الحقيقة هو في جوهره صراعٌ على السلطة.

ولكي نتحرّر من الأوهام التي تزرعها القوى المهيمنة، نحتاج إلى مصادر معرفيّةٍ مستقلّةٍ تتحدّى الرواية الرسميّة، ففي مقابل المعرفة المسلّطة تبرز الحاجة ملحّةً إلى صوت المعرفة الحرّة، من خلال دعم مراكز الأبحاث المستقلّة ذات المصداقيّة العالية، وتعزيز الإعلام المستقلّ، وتمكين الجمهور من مهارات النقد وتفكيك المعرفة المسلّطة والاستفادة الذكيّة من التكنولوجيا.

المصادر والمراجع

- حسين مزهر خلف: مراكز البحث والتفكير الأمريكيّة ودورها في صنع القرار السياسيّ الخارجيّ- بروكينغز وكارنيغي أنموذجًا، مجلّة قضايا سياسيّة، العدد٧٩، ٢٠٢٤م.
- سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، مجلّة الباحث في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، العدد الثاني، المجلّد ١٤، ٢٠٢٢.
- صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط٥، ٢٠٠٦م.
- نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام: الإنجازات المذهلة للدعاية، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م.
- نعوم تشومسكي: الإعلام وصناعة الموافقة، ترجمة محمّد أحمد حسن، نسخة إلكترونيّة، مكتبة نور، https://www.noor-book.com
- هزار إسماعيل: دور مراكز الأبحاث في عمليّة صنع القرار وإعداد السياسات العامّة، مجلّة السياسة العالميّة، المجلّد٥، العدد٣، ٢٠٢١م.
- Andrew Rich, (2005). Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise. Cambridge: Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511614381
- Antonio Gramsci: Prison Notebooks (trans. Joseph A. Buttigieg). Columbia University Press, 1992–1996 (3 vols).
- Ido Levy, (2024). How Hamas built an army. The Washington Institute for Near East Policy. https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/how-hamas-built-army
- Matthew Levitt, (2023, November). The Hamas–Iran relationship. The

Washington Institute for Near East Policy. https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/hamas-iran-relationship

- Michel Foucault, (2002). The Archaeology of Knowledge. London: Routledge. (Original work published 1969).
- Raewyn Connell, (2007). Southern Theory: The Global Dynamics of Knowledge in Social Science. Cambridge: Polity Press.
- Oxford Dictionaries. (2016). "Word of the Year 2016: Post-Truth". https://languages.oup.com/word-of-the-year/2016/?spm=a2ty_o01.29997173.0.0.151b5171yspPiA
- Oxford University Careers Service. Think Tanks. https://www.careers.ox.ac.uk/think-tanks
- Amnesty International. (2024). Silenced: How social media platforms censor Palestinian voices. https://www.amnesty.org/en/documents/mde152024/7798//en
- Bellingcat. (2023). Gaza: Debunking Israeli military claims. https://www.bellingcat.com/news/middle-east/202303/11//israeli-airstrike-on-al-ahli-hospital-in-gaza
- Channel 4 News, Human rights investigators raise new questions on Gaza hospital explosion. https://www.channel4.com/news/human-rights-investigators-raise-new-questions-on-gaza-hospital-explosion
- Committee to Protect Journalists (CPJ). (2023). Censorship of Palestinian voices on social media. https://cpj.org/reports/202311//gaza-palestinian-social-media-censorship/
- The Heritage Foundation. (2023). The Danger of Anti-Israel Sentiment in

America. November 8, 2023. https://www.heritage.org/israel/report/the-danger-anti-israel-sentiment-america

- The Heritage Foundation. (2023). Why Calls for a Ceasefire Play into Hamas's Hands. October 12, 2023. https://www.heritage.org/middle-east/report/why-calls-ceasefire-play-hamas's-hands
- RAND Corporation. (2024). Reconstructing Gaza: A Framework for a Sustainable and Secure Post-Conflict Gaza (RR-A20241-). Santa Monica, CA: RAND. https://www.rand.org/pubs/research_reports/RRA20241-.html
- RAND Corporation. (2024). Governing Gaza After Hamas: Options for International Administration. https://www.rand.org/pubs/perspectives/PEA20241-.html
- On Think Tanks. (2024). State of the Sector: Insights from the Global Survey of Think Tanks. https://www.onthinktanks.org/articles/state-of-the-sector-2024